مواقف المؤمنين والكفار من القرآن
في ضوء القرآن

إعداد
د. عبدالحميد بن عبدالرحمن السحيباني
الأستاذ المساعد بكلية الملك فهد الأمنية - الرياض

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد..

فهذا بحث ميسر في بيان مواقف المؤمنين، والكفار من القرآن الكريم نرى فيه الإذعان للحق، والتسليم للشرع، والخضوع والخشوع من قبل المؤمنين ونرى فيه كيف يواجه الكفار شرع رب العالمين بالعناد والاستكبار والصدود عن الحق، والإعراض عن النور..

إنا دروس ومواعظ من الله - تعالى - لعباده، يرشدهم فيها من خلال عرض الموقفين المتباينين إلى وجوب سلوك طريق المهتدين من المؤمنين، والتحذير من الانتكاس باتباع سبيل أتباع الشياطين، فمن آمن واتبع الحق كان من الفائزين الآمنين في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن الحق وصد عنه كان من الهالكين النادمين هناك في الآخرة، ولات ساعة مندم.

قسمت البحث إلى بحثين هما: مواقف المؤمنين من القرآن، ومواقف الكفار..

وجعلت تحت كل مبحث ما يناسبه، وسلكت في بحثي منهج التفسير الموضوعي، أما الجوانب التحليلية فلم أتعرض لها إلا بما تقتضيه طبيعة البحث، وحرصت على اختيار المصادر الأصلية في البحث، واجتهدت في ربط الموضوع بقضايا العصر والواقع الذي نعيشه؛ ليكون أكثر نفعاً، وأقرب للقبول، والله - تعالى - أسأل أن ينفعني والمسلمين به، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

◆ ◆ ◆

الفصل الأول

موقف المؤمنين

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: التصديق.

المبحث الثاني: الخشوع والبكاء والاتعاظ.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان.

المبحث الرابع: وصف القرآن بالخيرية.

المبحث الخامس: العمل بالقرآن.

المبحث الأول: التصديق

التصديق بالقرآن المنزل من عند الله – عز وجل – أحد المواقف التي يقفها المؤمنون بالله – عز وجل – تجاه القرآن، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. والله – عز وجل – قد ذكر ذلك في القرآن، وأثنى على نبيه محمد ﷺ وأمته بسبب تصديقهم بالقرآن، قال سبحانه: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون..} (١)، والمراد بذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين معه قد أقروا وصدقوا بما أوحي إلى النبي ﷺ من القرآن، وما فيه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وأمر ونهي، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها(٢)، وقد أخرج الحاكم في مستدركه (٣) عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: لمّا نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون} قال النبي ﷺ: "وأحق له أن يؤمن".

وهذا الذي قرره الله – عز وجل – في الآية الكريمة ثناء عظيم من الله – تعالى – على نبيه ﷺ والمؤمنين كما يشهد بذلك ما رواه حكيم بن جابر قال: لما نزلت {آمن الرسول} قال جبريل للنبي ﷺ: "إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسَلْ تعطه" (٤).

وهذا دليل على أن الآية الكريمة شهادة وتنصيص من الله – تعالى – على صحة إيمانه ﷺ والاعتداد به، وأنه جازم في أمره غير شاك فيه. (٥)

وإن إيمان المؤمنين وتصديقهم بالقرآن دليل على تصديقهم وإيمانهم بالآخرة التي يحشر فيها جميع العباد، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال الله عز وجل: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون} (٦).

فبين الله – عز وجل – ههنا أن من صدّق بالآخرة وقيام الساعة

والمعاد خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالقرآن (٧) ، وإنما يجحد به وبما فيه ويكذبُ أهل التكذيب بالمعاد والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثواباً، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقاباً. (٨)

الإيمان بالقرآن أصل الإيمان

ولما كان الإيمان بالقرآن والتصديق به بهذه المثابة العظيمة من تنويه القرآن بذلك فلا غرو أن يكون الإيمان به هو أصل الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله –: "ولهذا كان أصل "الإيمان" الإيمان بما أنزله، قال – تعالى –: {ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.. إلى قوله: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} (٩) ، وفي وسط السورة: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم} (١٠) ، وفي آخرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون} (١١) ..

ولهذا عَظُم تقرير هذا الأصل في القرآن، فتارة يفتتح به السورة إما إخباراً كقوله: {ذلك الكتاب}.. وإما ثناء بإنزاله كقوله: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً} (١٢) ، {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} (١٣) .

وأما في أثناء السور فكثير جداً" (١٤) . أ.هـ.

الإيمان بالمتشابه

ومن مواقف المؤمنين تجاه القرآن أنهم يؤمنون بالمتشابه منه، وهو ما كان معناه ملتبساً على الأفهام، مما تشابهت ألفاظه، واحتمل صرف صارفه في وجوه التأويلات باحتماله المعاني المختلفة (١٥) ، وذلك نحو قوله – سبحانه –: {فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون} (١٦) فإنه قد يلتبس المعنى إذا جاء قوله – سبحانه –: {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} (١٧) فالمؤمنون، بل الراسخون في العلم يؤمنون بهذا المتشابه، وزيادة على ذلك فهم يعلمون معناه، فيقولون هنا: المعنى: فلا أنساب بينهم

في النفخة الأولى، ولا يتساءلون، ثم في النفخة الثانية: أقبل بعضهم على بعض يتساءلون (١٨) .

ولا يجوز أن نقول إن الراسخين في العلم يؤمنون بالمتشابه ولا يعلمون معناه، لأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالإيمان لم يخص الراسخين، بل قال: والمؤمنون يقولون آمنا به، فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به، فلما خص الراسخين في العلم بالذكر عُلم أنهم امتازوا بعلم تأويله، فعلموه لأنهم عالمون، وآمنوا به لأنهم يؤمنون، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف، وقال عقيب ذلك: {وما يذكر إلا أولوا الألباب} وهذا يدل على أن هنا تذكراً يختص به أولو الألباب.

ونظير هذا قوله في الآية الأخرى: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} (١٩)، فلما وصفهم بالرسوخ في العلم وأنهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين. فلوا أريد هنا مجرد الإيمان لقال: والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به كما قال في تلك الآية، لمّا كان مراده مجرد الإخبار بالإيمان جمع بين الطائفتين. (٢٠)

وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن، فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب، وهي فتنتها به، ويطلبون تأويله، وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء، بل هذا لأجل الفتنة، وكذلك صُبيغ بن عسل (٢١) ضربه عمر لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة، وقد اعترف صُبيغ نفسه بأن ضرب عمر له أدّبه، تقول الرواية: "فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنتُ أجد في رأسي.(٢٢)

ومثل ذلك مَنْ يورد أسئلة وإشكالات على كلام الغير، ويقول: ماذا أريد بكذا، وغرضه التشكيك والطعن فيه، ليس غرضه معرفة الحق.

وأما مَنْ سأل عن المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبه وهو عالم بالمحكم متبع له، مؤمن بالمتشابه، لا يقصد فتنة، فهذا لم يذمه الله ـ عز وجل ـ، وهكذا كان الصحابة يقولون، مثل الأثر الذي رُوي عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: يقرأ القرآن رجلان، فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس، فما تبين له منه عمل به، وما اشتبه عليه وكله إلى الله، ليتفقهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه، أو يفهمه إياها من قبل نفسه. (٢٣)

فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما مَنْ قصده الفقه فقد أخبر أن الله ـ تعالى ـ لا بد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط.

ومن الأدلة على أن الراسخين في العلم يؤمنون بالمتشابه من القرآن ويبحثون عن المعنى إذا لم يعرفوه أن الصحابة كانوا إذا عَرَض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك، كما سأله عمر فقال: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به (٢٤)؟ ولما نزل قوله ـ سبحانه ـ {ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} (٢٥) شق عليهم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم (٢٦)، ولما نزل قوله: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} (٢٧) شق عليهم حتى بيّن لهم الحكمة في ذلك (٢٨)، ولما قال النبي ﷺ: "من نوقش الحساب عذب" قالت عائشة: ألم يقل الله: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً)(٢٩)؟ قال: إنما ذلك العرض(٣٠).

ومن قال: إن الراسخين في العلم يؤمنون به ولكن لا يعرفون معناه فقول ساقط لا قيمة له، يخالفه إجماع السلف ـ رحمهم الله ـ فإنهم فسروا جميع القرآن، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية وأسأله عنها (٣١).

وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ كما قال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود

وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً (٣٢)، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه لكن لأنه هو لم يعلمه.

- ولأن الله – تعالى – أمر بتدبر القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ولم يقل: لا تتدبروا المتشابه، والتدبر بدون الفهم ممتنع.
- ولأن الله – تعالى – أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئاً عن هذا الوصف، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى.
- ولأن من العظيم أن يقال: إن الله – تعالى – أنزل على نبيه كلاماً لم يكن يفهم معناه، لا هو ولا جبريل، وإذا حدث القول بذلك كان ذلك من أعظم قدح الملاحدة فيه لأنهم سيقولون إنه لا يعرف الأمور العلمية في القرآن، وهذا باطل. (٣٣)

المبحث الثاني: الخشوع والبكاء

الخشوع والبكاء عند الاتصال بالقرآن موقف من مواقف المؤمنين تجاه القرآن، وذلك ما ينبئ برقة تلك القلوب وطمأنينتها ونزول السكينة عليها، ولأهمية الموقف وشدته نجد عتاب الله – عز وجل – لمن تباطأ وتقاعس عن الاستجابة والاستضاءة بنور الله – عز وجل –، وبيانه لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله – تعالى – وحين لا تخشع للحق: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون} (٣٤) .

ونحن إذا تأملنا آيات القرآن وجدنا أن الله – عز وجل – يذكر أن من صفات عباده المؤمنين عند تلاوة الكتاب عليهم الخشوع والبكاء، وهذا أصل في المؤمنين المعظمين لربهم – جل وعلا –، ويقول – سبحانه –: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً} (٣٥) .

وهذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم، وحق لكل من توسم بالعلم وحصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة عند استماع القرآن، ويتواضع ويذل، وقدأخرج الطبري في تفسيره عن التيمي قال: "من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألاّ يكون أوتي علماً، لأن الله – تعالى – نعت العلماء ثم تلا هذه الآية(٣٦).

ولا شك أن هذا المشهد مشهد موحٍ يلمس الوجدان، وهو مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن، فيخشعون، ويخرون للأذقان سجدا، تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده: {سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً} ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ {ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم

خشوعاً} (٣٧) .

ومثل هذا الذي تقدم ما ذكر الله – عز وجل – عن المؤمنين أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وبُكيا، قال – جل شأنه – : {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكياً} (٣٨) .

والمراد بذلك إذا تتلى على أنبيائه عليهم السلام – أدلة الله تعالى – وحججه التي أنزلها في كتابه خروا لله سجداً استكانة له وتذللاً وخضوعاً لأمره، وانقياداً، (وُبكياً) أي يخرون سجداً وهم باكون. (٣٩)

وهذا المذكور عن عباد الله المتقين يفيد أنهم يلزمون الأدب عند سماع الآيات كما كان الصحابة – رضي الله عنهم – عند سماعهم كلام الله – تعالى – من تلاوة رسول الله ﷺ، تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل فما له من هاد} (٤٠) .

وهكذا نرى موقف المؤمنين تجاه القرآن، موقف واضح لا غموض فيه ولا التواء، استضاءة بنور القرآن، وخشوع إلى ذكر الله – تعالى –، لا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة، ولذلك لمّا تلا قتادة – يرحمه الله –: {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله – عز وجل – بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا من أهل البدع، وهذا من الشيطان (٤١) .

وتأمل قوله – سبحانه – في وصف عباده المؤمنين: {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً} (٤٢) . فقرر – سبحانه –

هنا أنه إذا ذكرهم مذكر بحجج الله – تعالى – لم يكونوا صماً لا يسمعونا، وعمياً لا يبصرونا، ولكنهم أيقاظ القلوب فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذكرهم به ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته، وقلوباً وعته(٤٣) ، وهذا بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله حيث لا تؤثر فيه، ويستمر على حاله كأن لم يسمعها، ولم يبصرها (٤٤) ، وعبّر – سبحانه – هنا بنفي الضد تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون (٤٥) .

وما تقدم ذكره من أن المؤمنين إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكياً دليل على جواز البكاء في الصلاة، وقد روى عبدالله بن شداد (٤٦) قال: سمعت نشيج عمر – رضي الله عنه – وإني لفي آخر الصفوف، وقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف حتى إذا بلغ: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) نشج، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، وقد كانوا خلفه فصار إجماعاً. (٤٧)

فإن قال قائل: كيف يكون البكاء عند قراءة القرآن؟ فالجواب أن يقال: طريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم يفكر في تقصيره فيها، فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب. (٤٨)

ويحرص المسلم كذلك على البعد عن المعاصي ورؤية أهلها فإن ذلك من أسباب غفلة القلب وإعراضه، وإذا غفل القلب أصيب بالقسوة فلا تؤثر فيه آيات القرآن.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان

إن المؤمنين بكتاب الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ إذا تليت عليهم آيات القرآن أو تلوه بأنفسهم زادتهم إيماناً، فصدقوا وأيقنوا أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك تصديقاً، وذلك هو زيادة ما تلي عليهم من آيات الله إياهم إيماناً (٤٩)، قال ـ سبحانه ـ : {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون} (٥٠)، وقال جل شأنه: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون} (٥١). وهذا يدل على أن المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الاطمئنان.

إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا واسطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه، فإذا زال هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووُجِد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان، وكما أن إيقاعات القرآن وتأثيراته تزيده إيماناً، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً.. لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله ـ تعالى ـ: {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} (٥٢)، {إن في ذلك لآية للمؤمنين} (٥٣) (٥٤).

وهذا الذي ذكره الله ـ عز وجل ـ عن المؤمنين أنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم إيماناً دليل على مذهب من مذاهب أهل السنة والجماعة وهو أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال الإمام ابن أبي العز ـ يرحمه الله ـ في كتابه "شرح العقيدة الطحاوية" : "والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً" وذكر منها الآية المتقدمة(٥٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.." (٥٦) .

وقال كذلك: "والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً} وهذه الزيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تُليت، ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذٍ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله، ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان" (٥٧) .

* وقد يقول سائل عند قوله ـ سبحانه ـ: {أيكم زادته هذه إيماناً} (٥٨) أليس الإيمان في كلام العرب هو التصديق والإقرار؟

فيقال له: بلى، فإن قال: كيف زادتهم السورة تصديقاً وإقراراً؟ قيل: زادتهم إيماناً عندما نزلت لأنهم قبل أن تنزل السورة لم يكن لزمهم فرض الإقرار بها والعمل بها بعينها إلا في جملة إيمانهم بأن كل ما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله حق، فلما أنزل الله السورة لزمهم فرض الإقرار بأنها بعينها من عند الله، ووجب عليهم فرض الإيمان بما فيها من أحكام الله وحدوده وفرائضه، فكان ذلك هو الزيادة التي زادتهم نزول السورة حين نزلت من الإيمان والتصديق بها، قاله ابن جرير. (٥٩)

المبحث الرابع : وصف القرآن بالخيرية

ذكر الله – عز وجل – عن عباده المتقين ضمن مواقفهم من القرآن أنهم يصفونه بالخيرية، أي بالبركة والرحمة لمن آمن به واتبعه كما قال – سبحانه –: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم؟ قالوا خيراً} (٦٠)

ونحن إذا تأملنا الآية الكريمة نجد أن لفظة (خيراً) جاءت منكرة لتشمل جميع أنواع الخير، فيدخل في ذلك كونه هدى ورحمة، وموعظة، وشفاء، ونوراً، وبرهاناً، ومباركاً، إذ هو مبارك في ألفاظه أودع الله وتعالى – لقارئه بركة، وللمشتغل به بركة في الدنيا والآخرة، والقرآن خير كله، لأن به كمال النفس وطهارتنا بالمعارف النظرية ثم العملية (٦١) .

ومن اشتغل بدراسته والعمل بما فيه عمته بركته وخيره، قال الرازي صاحب "مفاتيح الغيب": "قد جرت سنة الله – تعالى – بأن الباحث عنه أي عن هذا الكتاب المتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة. وأنا قد نقلتُ أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدنيا والآخرة مثل ما حصل لي بسبب خدمة هذا العلم، يعني التفسير. (٦٢)

والمتأمل في قوله – سبحانه – {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً} يجد أن كلمة (خيراً) جاءت منصوبة أي أنزل خيراً، فهو مفعول به لفعل محذوف تقديره: أنزل، وفي نصبه دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب، وأطبقوه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة، فإنهم لما قيل لهم: {ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطيرُ الأولين} (٦٣)

فجاءت لفظة (أساطيرُ) مرفوعة، لماذا؟ لأنهم لم يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله – عز وجل –، فكأنهم قالوا الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين، ولذلك نجدهم يصفون القرآن بصفات مختلفة تدل على إنكارهم تنزيله من رب العالمين، كقولهم إنه قول البشر، وقولهم إنه سحر. (٦٤)

المبحث الخامس: العمل بالقرآن

أنزل الله ـ عز وجل ـ القرآن الكريم من أجل العمل به، وهذه الصفة من أعظم صفات المؤمنين ومواقفهم التي يقفونها تجاه كتاب ربهم، فالقرآن أعظم العلوم، والعمل بهذا العلم العظيم الذي احتوى عليه القرآن من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، ولذا قال الحسن البصري ـ يرحمه الله ـ: إنه تعلم هذا القرآن عبيد وصبيان لم يأتوه من قبل وجهه، ولا يدرون ما تأويله، قال الله ـ تعالى ـ: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته} (٦٥) ما تدبر آياته؟ اتباعه بعمله، وإن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرأه، يقول أحدهم: يا فلان، تعال أقارئك. متى كانت القراء تفعل هذا؟ ما هم بالقُراء ولا الحلماء ولا الحكماء، لا أكثر الله في الناس أمثالهم. (٦٦)

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: (لا يغرركم من قرأ القرآن إنما هو كلام نتكلم به ولكن انظر من يعمل به. (٦٧)

وثبت في الحديث في أول من يقضى فيه يوم القيامة أنه رجل تعلم العلم والقرآن، فأتى به الله فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: تعلمت العلم وقرأت القرآن وعلمتُه فيك، فقال كذبت إنما أردت أن يقال: فلان عالِم وفلان قارئ، فأمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.. الحديث (٦٨) .

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ ضمن مواقف المؤمنين تجاه القرآن العمل به، قال ـ سبحانه ـ: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان} (٦٩) فقرر سبحانه في هذه الآية أنهم إن كانوا مؤمنين حقاً فسوف يتعاملون مع الغنائم حسبما ذكره الله ـ عز وجل ـ في القرآن في قوله ـ سبحانه ـ: {يسألونك

عن الأنفال قل الأنفال لله **والرسول}** ⁽⁷⁰⁾ **، وهنا نرى أن** الله **– عز وجل – نزع ملكية الغنيمة** ممن يجمعونها في **المعركة وردها** إلى الله **تعالى والرسول** ﷺ **ليخلص الأمر كله** لهما، **وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض، وليسلموا أمرهم كله – أوله وآخره –** لله **ربهم وللرسول** ﷺ **قائدهم، وليخوضوا** المعركة لله، **وفي** سبيل الله، **وتحت راية الإسلام، طاعة** لله **– عز وجل –** يحكمونه في **أرواحهم، ويحكمونه** في **أموالهم، ويحكمونه** في **أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض، فهذا هو الإيمان** بالله **وبما أنزل من آيات، حتى إذا استسلموا لأمر الله، وارتضوا حكمه ذاك، فاستقر فيهم مدلول الإيمان، عاد ليرد عليهم أربعة** أخماس **الغنيمة، ويستبقي الخمس على الأصل –** لله **والرسول – يتصرف فيه رسول** الله ﷺ **وينفق منه على من يعولهم** في **الجماعة المسلمة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، عاد** ليرد **عليهم الأخماس الأربعة، وقد استقر** في **نفوسهم أنهم لا** يملكونها **ابتداء** بحق **الغزو والفتح، فهم إنما يغزون** لله **– تعالى – ويفتحون لدين الله، إنما هم يستحقونها** بمنح الله **لهم إياها كما أنه هو الذي** يمنحهم **النصر من عنده.** ⁽⁷¹⁾

وقد قرر الله **– عز وجل –** في **كتابه وجوب العمل بالقرآن وهو الحكم به** وبين **أن ذلك هو الهدف من إنزال القرآن، قال – سبحانه –: {إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم** بين **الناس بما أراك الله ولا تكن** للخائنين **خصيماً}** ⁽⁷²⁾**، وقال: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما** يريد الله **أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم** الجاهلية **يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً** لقوم يوقنون} ⁽⁷³⁾ **.**

وقال – سبحانه –: {فاحكم بين **الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم**

الحساب} (٧٤) .

وقال - سبحانه - واصفاً نبيه محمداً ﷺ بأنه يتبع ما يوحى إليه ويعمل به: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ..} (٧٥) .

*** فإن قال قائل: وما الحكم فيمن لم يحكم بما أنزل الله في كتابه أو على لسان رسولهز ؟**

فيقال: هذا اختلف فيه العلماء، ورجح جمع من العلماء الكبار ومنهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - يرحمه الله - أنه إذا استحل الحكم بغير ما أنزل الله فإنه يكفر كفراً أكبر، ويظلم ظلماً أكبر، ويفسق فسقاً أكبر.

ومن فعلها بدون استحلال كان كفره كفراً أصغر، وظلمة ظلماً أصغر، وفسقه فسقاً أصغر، وبذلك يؤول قوله - سبحانه -: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}(٧٦)، وقوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} (٧٧) وقوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} (٧٨) .

ومما يشهد لذلك تسمية بعض المعاصي دون الكفر كفراً كقوله ﷺ كما في الصحيحين (٧٩) : "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" فأطلق لفظ الكفر على القتال، يريد بذلك الكفر الأصغر تنفيراً من هذا العمل (٨٠) .

الفصل الثاني

موقف الكفار

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: الغضب عند سماع آيات القرآن.
المبحث الثاني: الريب منه.
المبحث الثالث وصفه بالسحر.
المبحث الرابع: وصفه بأنه أساطير الأولين.
المبحث الخامس: الاستهزاء به والضحك وطلب المعجزات.
المبحث السادس: التكذيب والزعم بأنه كلام بشر.
المبحث السابع: الإعراض عنه بتقليد الآباء.
المبحث الثامن: محاولة فتن الناس عن القرآن.
المبحث التاسع: الاعتراض على النسخ.

المبحث الأول: الغضب عند سماع آيات القرآن

إذا كان الفرح والاستبشار والشوق إلى الله - تبارك وتعالى - يحصل للمؤمنين عند سماع آيات القرآن؛ لما أوقعه الله - تعالى - في قلوبهم من الإيمان والتصديق فإن من منهج الكافرين الغضب والتذمر والتسخط عند تلاوة الآيات عليهم بسبب كرههم للحق وأهله، وهذا شأن كل كافر جحود، فإنه إذا رأى الحق وأهله ولم يتبعهم صار مبغضاً لهم، كارهاً الاجتماع بهم، قال - سبحانه -: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير} (٨١)

وهذا فيه دلالة واضحة على أن هذا الكافر إذا نصح بآيات القرآن

أخذته العزة بالإثم، بسبب ما اشتمل عليه من الآيات كما قال – تبارك اسمه –: {وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد} (٨٢) .

إن موقف عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – مع المشركين عندما قرأ القرآن عليهم يكشف لنا ذلك بوضوح ما رواه، كما في "أسد الغابة" (٨٣) عن عروة بن الزبير قال: كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يسمعهم؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه، فقال دعوني فإن الله سيمنعني، فغدا عبدالله حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها حتى قام عبدالله عند المقام فقال رافعاً صوته: {بسم الله الرحمن الرحيم. الرحمن علم القرآن... فاستقبلها فقرأ بها، فتأملوا فجعلوا يقولون ما يقول ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ﷺ فقاموا، فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً، قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

وهكذا نرى منهج هؤلاء الكفار عندما تلقى عليهم كلمة الحق، إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة، ولا يقرعون الدليل بالدليل، إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عندما تعوزهم الحجة،ويخذلهم الدليل، وذلك شأن الطغاة دائماً يشتجر في نفوسهم العتو، وتهيج فيهم روح البطش، ولا يستمعون إلى كلمة الحق، لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ، ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد كما تقدم في آية الحج: {قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير} (٨٤) .

المبحث الثاني : الشك والريب

بين الله – عز وجل – في القرآن أن الكفار في حالة شك وريب تجاه القرآن أنه منزل من عند الله – عز وجل – رغم أن الأمر واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار، قال – سبحانه – عن كفار قريش: {وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب} (٨٥) .

هنا في هذه الآيات يقرر ربنا – سبحانه – أن هؤلاء المشركين لا ينقصهم أن يكونوا أهل علم بأن محمداً ﷺ صادق، ولكنهم في شك من وحينا إليه، وليس في عقيدتهم ما يقطعون به تجاه القرآن، فلذلك تراهم ينسبونه إلى السحر تارة، وإلى الاختلاق تارة، فهم في حالة شك وريب أن الله – تعالى – أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ ولكنهم سوف يجنون عاقبة ذلك في الآخرة، عندما يذوقون العذاب (٨٦) ، عند ذلك يعلمون ويوقنون حقيقة ما كانوا عليه تجاه القرآن، ويقرون بأنهم كانوا ظالمين كما سيأتي بيانه في مبحث قادم – إن شاء الله تعالى –.

فالكفار إذاً مصرون على رأيهم ذلك، لا ينفكون عنه بحال حتى تأتيهم الساعة كما قال – جل وعلا –: {ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم} (٨٧) فقوله – سبحانه –: {منه} أي من القرآن الذي يفهم من قوله – سبحانه – في الآية السابقة لهذه الآية: {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم..}(٨٨) ، وقد نقل ابن جرير عن ابن جريج في معنى قوله – سبحانه –: {في مرية منه} قال: {من القرآن}(٨٩) .

ولا شك ولا ريب أنهم بسبب هذا الشك والريب هالكون يوم القيامة

لأن الله ـ تعالى ـ بعدُ ذكر حالهم وحال من آمن بالقرآن وأخبتت له قلوبهم، قال سبحانه: {الملك يومئذٍ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين} (٩٠) .

وإن هذا الشك في القرآن دليل على أنهم قوم لا يعقلون، قوم لا يفقهون، قوم لا يفكرون فيما ينفعهم غداً عند الله ـ تعالى ـ، ولهذا نفى الله ـ تعالى ـ أن يكون ريب فيه فقال: {ذلك الكتاب لا ريب فيه}(٩١) ، معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه لا يرتاب العاقل فيه أبداً، بل يجزم بأنه وحي قد بلغ حد الإعجاز بحيث لا يدع مجالاً للشك فيه (٩٢) ، وقد كشف الله ـ تعالى ـ في القرآن باطل الكفار في ريبهم من القرآن، لما تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، ثم بين ـ سبحانه ـ عجزهم عن ذلك، قال ـ تبارك اسمه ـ: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين} (٩٣) .

والتحدي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة وتقرير القرآن أنهم لن يفعلوا، وتحقق ذلك كما يراه الناس جميعاً معجزة لا سبيل للمماراة فيها، ومن ثم جاء التهديد المخيف لمن يشكون ويرتابون في تنزل القرآن من رب العالمين، ثم يدعون إلى الإتيان بسورة من مثله فلا يستطيعون ولا يستجيبون للحق (٩٤) : {فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين}.

وهكذا أفحموا عن الجواب وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد. (٩٥)

المبحث الثالث: وصفه بالسحر

إن الناظر في حياة المبطلين الذين لا يستطيعون الوقوف أمام الحق والنور المبين ليَرى ويعلم يقيناً أنهم يسلكون سبيل الإنكار والجمود، والشك والارتياب في أمر الحق الذي يعرضه المؤمنون عليهم كما رأينا ذلك في المبحث المتقدم، ويسلكون كذلك سبيل وصف الحق الذي يؤيد الله – تعالى – به المؤمنين وهو القرآن، يسلكون سبيل وصفه بالسحر، وما معهم في ذلك حجة ولا برهان، ولكنها طريقة البطالين والمفلسين من كل خلق كريم وتعامل سليم، كما توضح ذلك آيات سورة المدثر في شأن أحد الكفار وهو الوليد بن المغيرة الذي استكبر عن الحق بعدما عرفه، وصد عن النور بعدما أبصره، ولذلك توعده الله – عز وجل – بالعذاب الشديد، بسقر التي لا تبقي ولا تذر: {ذرني ومن خلقت وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيداً. سارهقه صعوداً إنه فكر وقدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر. عليها تسعة عشر} (٩٦) .

روى عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه، فقال: أي عمّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لِمَ؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قِبَله، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكِر لما قال، وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه، فالله مَا منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوةً وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعْلَى. قال: واللهِ لا

يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكّر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره، فنزلت: {ذرني ومن خلقتُ وحيداً..} (٩٧) .

والمقام هنا مقام رهيب مفزع، كيف لا وقد تولى الله – عز وجل – حرب هذا المكابر المعاند، الذي عرف الحق تماماً فتركه وأعرض عنه، نرى هنا كيف أن الله – تعالى – يقول لنبيه ﷺ : {ذرني ومن خلقت وحيداً} أي خل بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده، فأنا سأتولى حربه، وهنا يرتعش الحس ارتعاشه الفزع المزلزل، وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حَد لها قوة الجبار القهار، قوة العزيز الحكيم – جل شأنه – لتنتقم من ذلك المخلوق المتجبر الذي في حقيقته ضعيف مسكين هزيل ضئيل، وهذه الرعشة يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منها، فكيف بالشخص الذي تتجه إليه وتواجهه، وهذا جزاء من عاند دلائل الحق وموجبات الإيمان، ووقف في وجه الدعوة، وهذا مصير من حارب النبي ﷺ وصدّ نفسه وغيره عن دعوته، وراح يطلق حولها الأضاليل بعد أن عرف الحق، واتضحت له معالمه. (٩٨)

والعجب أن وصف القرآن بأنه سحر ليس هو كلام الوليد فقط، بل هذا قد ذكره – سبحانه – عن عموم الكافرين كما قال – جل وعلا –: {وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين} (٩٩) ، وفي الآية الأخرى: {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين} (١٠٠) ، فلما قاله جماعة منهم وأقرهم الآخرون صار الجميع قائلين له. ولم يكن إطلاق لفظ السحر على آيات الله – تعالى – بأنها سحر مقصوراً على كفار قريش فحسب، بل هذا قد ذكره الله – عز وجل – عن الكافرين من قوم موسى – عليه السلام – كما قال – سبحانه –: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين. فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} (١٠١) ، وقال سبحانه: {فلما جاءهم

موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} (١٠٢) .

المبحث الرابع: وصفه بأنه أساطير الأولين

من أعجب مظاهر الإعراض والاستكبار عن الحق عند الكفار والمشركين وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين، يريدون بذلك أنه مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم (١٠٣) .

وقد بين الله – عز وجل – مقولتهم الشنيعة هذه في عدد من سور القرآن، في سورة الأنعام، والأنفال، والنحل، والمؤمنون، والفرقان، والنمل، والأحقاف، والقلم، والمطففين.

وقد كان هؤلاء الكفرة المعاندون يصفون القرآن بأنه أساطير الأولين في مناسبات متعددة، وسأوضح ذلك فيما يلي:

١. عند تلاوة الآيات عليهم، كما قال – سبحانه –: {ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عُتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذلك مال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} (١٠٤) .

وقد علق الإمام البغوي – يرحمه الله – على أفعال هذا المشرك والتي منها وصف القرآن بأنه أساطير الأولين بقوله: "جعل مجازاة النِعَم التي خُولها الكفر" (١٠٥) .

وقرر الله – عز وجل – مقولة المشركين هذه في سورة المطففين بقوله: {ويل يومئذٍ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}(١٠٦) . وقوله – سبحانه –: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} بيان بأن الذي أدى بهم إلى هذه المقولة الشنيعة تجاه القرآن عليهم من حب المعاصي التي انهمكوا فيها حتى صار

ذلك صدأ على قلوبهم، فعمّى عليهم معرفة الحق، فقالوا هذا القول (١٠٧)، وهكذا المرء إذا أشرب قلبه حب المعاصي اسود قلبه كما أخرج الترمذي في سننه (١٠٨) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الألباني: حديث حسن (١٠٩).

٢. عند ذكر البعث المقرر في القرآن، وذلك أن الله – عز وجل – قرّر في القرآن أن جميع الخلق سيخرجون أحياء من قبورهم يوم القيامة {يوم يقوم الناس لرب العالمين} (١١٠) وهذا ما جاء به رسولنا ﷺ قومه المشركين كفار قريش، فكان من صور إعراضهم وزيغهم أنهم أنكروا هذا البعث وكذبوه تمام التكذيب رغم أن آيات القرآن التي تقرر ذلك تقرعهم بذلك ليلاً ونهاراً، فكانوا يصفون ذلك بأنه أساطير الأولين، وهذا غاية الإمعان في الكفر والعناد، قال – جل شأنه –: {وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون. لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} (١١١).

قال ابن جرير – يرحمه الله –: "يقول – تعالى ذكره –: قال الذين كفروا بالله إننا لمخرجون من قبورنا أحياء، كهيئتنا من بعد مماتنا بعد أن كنا فيها تراباً قد بَلِيْنا {لقد وُعِدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل} يقول: لقد وُعِدنا هذا من قبل محمد وَعَدُونا ووعدوا ذلك آباءنا، فلم نر لذلك حقيقة، ولم نتبين له صحة {إن هذا إلا أساطير الأولين} يقول: قالوا: ما هذا الوعد إلا ما سطر الأولون من الأكاذيب في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدثوا به من غير أن يكون له صحة" أ.هـ (١١٢).

ولا شك أن هؤلاء الكفار لما حكموا على أن البعث والنشور يوم

القيامة أساطير الأولين فإنهم يقولون ذلك نتيجة تكذيبهم للقرآن، وزعمهم بأنه أساطير الأولين.

ومثل هذا الذي قرره الله ـ عز وجل ـ في سورة النمل قرره ـ سبحانه ـ في سورة المؤمنون وسورة الأحقاف.

قال ـ سبحانه ـ في سورة المؤمنون: {بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أإنا لمبعوثون. لقد وُعِدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} (١١٣) .

وقال ـ جل وعلا ـ في سورة الأحقاف: {والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانِنِي أن أخرج "أي أبعث" وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين} (١١٤) .

٣. عند تحديهم للقرآن بأنهم يستطيعون الإتيان بمثله، كما قال ـ عز وجل ـ: {وإذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين} (١١٥) .

وهذا الكلام الذي قاله هؤلاء المشركون لا شك أنه في غاية العناد والمكابرة، كيف لا ولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الذي كان يمنعهم من المشيئة، وقد تُحدوا عشر سنين، وقرعوا على العجز، وذاقوا الأمرين، ثم قورعوا بالسيف، فلم يعارضوا بما سواه، مع أنفسهم وفرط استنكافهم أن يُغلبوا لا سيما في باب البيان. (١١٦)

٤. وعند مخاصمتهم ومجادلتهم للنبي ﷺ بالباطل، كما ذكر ـ سبحانه ـ في سورة الأنعام: {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين}(١١٧) .

٥. عند تكذيبهم للقرآن وزعمهم أنه من اختلاق محمد ﷺ كما قال ـ

تبارك اسمه ـ : {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً}(١١٨)، جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ المقولة الشنيعة للكفار حول القرآن إنه إفك افتراه رسول الله ﷺ، وذلك في قوله ـ سبحانه ـ: {وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً} (١١٩) .

وهكذا نرى أن الكفار زعموا أن القرآن من اختلاق محمد ﷺ، وأن آياته تملى عليه بكرة وأصيلاً ليحفظها، لأنه أمي لا يقدر على القراءة (١٢٠) .

٦. عند سؤالهم عن الشيء الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على قلب محمد ﷺ وهو القرآن، فيقولون في الجواب على ذلك إنه أساطير الأولين، يقول ـ سبحانه ـ: {فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكِرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين* وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين} (١٢١) وهنا نجد لفظة (أساطير الأولين) جاءت مرفوعة؛ وذلك لأنهم لم يؤمنوا بأنه منزل من عند الله ـ عز وجل ـ، ولذلك نجدهم تارة يصفونه بأنه سحر، وتارة بأنه قول البشر، وهكذا، فكأنهم يقولون هنا ما يقوله محمد هو أساطير الأولين، وهذا بخلاف المؤمنين كما بينا سابقاً في وصفهم القرآن بالخيرية: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً} (١٢٢) ومجيئ لفظ (خيراً) منصوباً دليل على اعترافهم الواضح بأن القرآن منزل من عند الله ـ جل وعلا ـ لأن التقدير: أنزل ربنا خيراً أي القرآن.

وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ هنا عند ذكر مقولة الكفار تجاه القرآن بأنه أساطير الأولين الجزاء الذي سينالونه، وهو أنهم سيحملون آثامهم كاملة يوم القيامة لا يغفر لهم منها شيء، قال سبحانه: {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون} (١٢٣) .

المبحث الخامس: الاستهزاء والضحك منه وطلب المعجزات

الحق أن الكفار الذين عشعش الكفر في أبدانم وسرى في كل ذرة من أجسادهم قد انقلبت عندهم الموازين، واختلت القيم، فصار الحق عندهم باطلاً، والباطل حقاً، لقد بلغ بم الاستكبار عن الحق، والعناد والتعنت ما جعلهم يضحكون استهزاء بالقرآن، والدليل على ذلك أن الله – عز وجل – أنبهم على ذلك وفضحهم لفعلهم هذه الجريمة الشنعاء، يقول – سبحانه – مخاطباً مشركي قريش: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا} (١٢٤) .

قال ابن جرير – يرحمه الله –: "يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: أفمن هذا القرآن أيها الناس تعجبون أن نزل على محمد ﷺ وتضحكون منه استهزاء به، ولا تبكون مما فيه من الوعيد لأهل معاصي الله وأنتم من أهل معاصيه، وأنتم سامدون، يقول: وأنتم لاهون عما فيه من العبر والذكر، معرضون عن آياته" (١٢٥) .

* ومن أوجه استهزاء الكفار بالقرآن اللعب عند الاستماع إليه، كما قال – جل شأنه –: {اقترب للناس حسابم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون} (١٢٦) .

فقوله: (وهم يلعبون) أي إنم يستهزئون بالقرآن ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب (١٢٧) .

* ومن أوجه استهزائهم طلبهم من الرسول ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن كما قال – تبارك اسمه –: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم. قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون} (١٢٨) .

هنا يخبر ـ سبحانه ـ عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم رسول الله ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة، قالوا له: ائت بقرآن غير هذا أي رُد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت أو ما نكرهه من معايب آلهتنا، وهذا لا شك أنه نوع من الاستهزاء بالقرآن والتعريض به، وعلامة على تعنتهم وإصرارهم على الباطل، ولذا ردّ الله ـ تعالى ـ عليهم بقوله: {قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي...} يعني أن ذلك ليس إلى الرسول ﷺ ، إنما هو عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ـ تعالى ـ، وأن هذا القرآن الذي جاءهم به إنما جاءهم به عن إذن الله ـ تعالى ـ له في ذلك ومشيئته وإرادته، وإن أكبر دليل على أنه ﷺ لم يتقوله من عند نفسه ولا افتراه أن هؤلاء الكفار عاجزون عن معارضته وأنهم يعلمون صدق النبي ﷺ وأمانته منذ نشأته بينهم إلى حين بعثه الله ـ تعالى ـ (١٢٩) .

وهؤلاء المشركون قد لا يسخرون من القرآن مباشرة ولكنهم قد يسخرون من المؤمنين الضعفاء عند تلاوة الآيات عليهم كما قال ـ جل وعلا ـ: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً} (١٣٠) .

لقد كان كفار قريش يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا، وكما تقرر الآية الكريمة هنا أن هؤلاء الكفار لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله ـ تعالى ـ، لقصور نظرهم على الحال، وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا، فردّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً} (١٣١) (١٣٢) .

ومن علامات استكبار الكفار عن اتباع القرآن التعنت وطلب

المعجزات، كما قال ـ تبارك اسمه ـ : {ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كُفُوراً. وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً} (١٣٣)

وهكذا قصُر إدراك هؤلاء عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية أو يتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج، ولم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه في أساليب شتّى، تناسب شتى العقول والمشاعر، وشتى الأجيال والأطوار (١٣٤) .

وها هي آيات سورة القصص التي يخبر فيها سبحانه عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول، يخبر سبحانه بأنهم لمّا جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: {لولا أوتي مثل ما أوتي موسى} أي مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع وغير ذلك، وقد رد عليهم سبحانه بقوله: {أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} (١٣٥)

(أهدى منهما) أي من التوراة والقرآن (١٣٦) قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين}(١٣٧) .

المبحث السادس : التكذيب والزعم بأنه كلام بشر

التكذيب بالقرآن والزعم بأنه كلام بشر أحد المواقف الشنيعة التي واجه بها الكفار كتاب الله – عز وجل – كما قرر ذلك ربنا – تبارك وتعالى – في عدد من آي القرآن، يقول – سبحانه –: {فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون} (١٣٨)، وقال: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج} (١٣٩).

ولم يكتف الكفار بالتكذيب المجرد بل بالغوا في هذا التكذيب حتى لقد قالوا: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} (١٤٠).

والمتأمل لهذا التكذيب من قِبَل هؤلاء الكفرة يجد أن سببه الإعراض عن الحق والصدود عنه، يقول ابن القيم" (١٤١). عند ذكره قوله – تعالى –: {فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون} (١٤٢) يقول: "فالأمر منحصر في الحق والباطل والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق فأين العدول وأين المذهب؟ ونظير ذلك قوله – تعالى –: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم} (١٤٣) أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول ﷺ وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم، ونظيره قوله – تعالى –: {بل كذبوا بالحق لمّا جاءهم فهم في أمر مريج} (١٤٤) لمّا تركوا الحق وعدلوا عنه مَرَجَ عليهم أمرهم والتبس فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل مَنْ خرج عن الطريق الموصول إلى المقصود.. وهكذا لمّا كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب" أ. هـ.

وهذا التكذيب الذي قام به المشركون قد أبطله الله – عز وجل – وردّ عليه وفضحهم، قال – سبحانه –: {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} (١٤٥)، وقال

في الآية قبلها: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} (١٤٦) .

وفي هذا ردّ واضح على قول الكفار: (درستَ) كما في سورة الأنعام (١٤٧) ، وقولهم: (معلم مجنون)، كما في سورة الدخان (١٤٨) ، وقولهم: {إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون} في سورة الفرقان. (١٤٩)

ومما رد الله – عز وجل – به مقولة الكفار إنه قول بشر قوله – سبحانه – : {وما تنزلت به الشياطين} (١٥٠) وذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه.

١. قوله: {وما ينبغي لهم} أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة.
٢. قوله: {وما يستطيعون} أي ولو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر وهذا من رحمة الله – تعالى – بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله ﷺ .
٣. قوله – سبحانه – {إنهم عن السمع لمعزولون} وهذا كقوله – سبحانه – مخبراً عن الجن: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً} (١٥١) .

وقال الألوسي" عند الآيات الكريمة السابقة: {وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون} قال:

فيه إشارة إلى أنه ليس للشيطان قوة حمل القرآن لأنه خلق من نار وليس لها قوة حمل النور(١٥٢).

التكذيب بالقرآن ظلم عظيم

ولما كان القرآن واضحاً بيناً، قد قامت الدلائل والحجج على أنه كلام الله – تعالى – وليس بكلام بشر فقد حكم الله – عز وجل – على مَنْ كذّب به بأنه قد بلغ الغاية الكبرى في الظلم، قال تبارك اسمه: {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين} (١٥٣) .

فأخبر سبحانه هنا أنه لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله، وكذّب بالصدق إذ جاءه (١٥٤) ، وتوعدهم بقوله: {أليس في جهنم مثوى للكافرين} ولما كان هؤلاء الكفار على الباطل لما كذبوا فإنهم يندمون على ذلك في الآخرة، ولات ساعة مندم: {ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون} (١٥٥) ، وقد ردّ الله – تعالى – عليهم هنا بأنهم كاذبون فيما قالوه، وأنهم إن عادوا إلى الدنيا لرجعوا إلى الكفر والعناد.

ولقد كان جزاء ذلك التكذيب شديداً مهولاً، كيف لا والذي ينتظرهم عذاب دائم أبد الآبدين: {وأما إن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم. وتصلية جحيم} (١٥٦) ، {وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون} (١٥٧) ، {ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون. الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون. إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} (١٥٨) .

المبحث السابع : الإعراض عنه بتقليد الآباء

هذه حقيقة واضحة قررها الله - عز وجل - في القرآن، وهو ما يبين العناد والتعنت الذي كان عليه الكفار، يقول - سبحانه -: {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون} (١٥٩) ، وقال - تبارك اسمه -: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا} (١٦٠) ، وهذا الإعراض عن القرآن هو نوع من هجر القرآن الذي بين الله - عز وجل - في القرآن أن الكفار قد اتصفوا به، إذ قال - سبحانه -: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} (١٦١) ، وقد ذكر ابن القيم - يرحمه الله - أنواعاً لهجر القرآن، نذكرها فيما يأتي:

١. هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.
٢. هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه.
٣. هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.
٤. هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.
٥. هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائه فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: {وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} (١٦٢) .

وهذه الأنواع لهجر القرآن موجودة بلا شك عند الكفار، وقد توجد عند بعض المسلمين الذين غرهم الشيطان، فاتبعوا أهواءهم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

قال ابن القيم بعد ذكره لهذه الأنواع: وإن كان بعض الهجر أهون من بعض، وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله - تعالى -، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه

مخلوقاً من بعض مخلوقاته.. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات، وتارة يكون من جهة دلالته، وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب المصحلة، فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء (١٦٣) .

وهكذا يجد المتأمل لهذا الكلام الرصين أن موقف الناس من القرآن قرباً وبعداً بحسب ما وقر في قلوبهم من الإيمان وبحسب تركهم العمل بما في القرآن من أمر ونهي وغير ذلك، وأنت عندما تتأمل في أصحاب المذاهب المنحرفة والأهواء الضالة تجد ذلك واضحاً بيناً، وهم كما يقول ابن القيم - يرحمه الله - في مدارج السالكين: "درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم، فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم، فليسوا يبصرونها لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً، خلعوا نصوص الوحي عند سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا مالك عندنا من عبور..

"المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظاهر مبخوس حظه من المعقول والدوائر مع النصوص كحمارٍ كما يحمل أسفاراً، فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون {وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون} (١٦٤) .

أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلهما واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه إلا أثراً واستكباراً، فتراهم أبداً بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزؤون.. خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك، تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين.." (١٦٥) .

المبحث الثامن : محاولة صرف الناس عن القرآن (١٦٦)

القرآن العظيم مصدر كل قوة، ومنبع كل خير، وأساس كل فضيلة. ولقد صرح أعداؤنا اليوم أنهم لن يستطيعوا القضاء علينا إلا إذا فتنونا عن القرآن، وأسوق الآن إلى القارئ الكريم شواهد على ذلك:

١. يقول غلادستون: ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان.

٢. ويقول المبشر وليم جيفور بالكراف:

متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة بعيداً عن محمد وكتابه.

٣. ويقول المبشر تاكلي: يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تماماً، يجب أن نبين

للمسلمين أن الصحيح في القرآن، ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً.

٤. ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور عام على احتلالها: يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم.. ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم، حتى ننتصر عليهم. (١٦٧)

وقبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان بين القرآن العظيم لنا محاولة أعداء الله - تعالى - من الكافرين صرف الرسول ﷺ وصده عن كتاب ربه العظيم، ذلك الكتاب الذي أنزله الله عليه ليكون له وللناس جميعاً هادياً، وبشيراً، وسراجاً يُهتدى بنوره.

ها هو القرآن يقرر ذلك في سورة الإسراء، يقول جل في علاه: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لفتري علينا غيره وإذاً لا تخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً} (١٦٨) .

لقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد معنى الفتنة هنا، ولكل قول مثال يوضحه.

وأنا هنا أذكر تلك الأقوال وأمثلتها من المرويات الواردة في ذلك. وبعده أبين الراجح - بإذنه تعالى - .

*** أقوال المفسرين في هذه الفتنة :**

١. أن المراد بالفتنة الإلمام بالآلهة؛ لأن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ذلك فهم به، لما ورد أنه كان يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعه حتى يلم بآلهتنا، فحدث نفسه، وقال: ما عليّ أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره، فأبى، فأنزل الله - تعالى - : {وإن كانوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره} (١٦٩) .

٢. أن المراد بالفتنة طلب بعض الكبراء من النبي ﷺ أن يجعل لهم مجلساً دون

مجلس الفقراء، وأنهم بزعمهم سوف يسمعون منه، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم، حيث روي أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن إليهم، فأوحى الله إليه: {وإن كادوا ليفتنونك..} (١٧٠) .

٣. أن المراد بالفتنة ما روي عن قتادة أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ليلة إلى الصباح يكلمونه، ويفخمونه، ويقولون: أنت سيدنا، وابن سيدنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك} (١٧١)هذه أقوال المفسرين في بيان معنى الفتنة في الآية الكريمة، والحقيقة أن المتأمل في ذلك يجد أنه ليس هنالك بيان في الكتاب، أو خبر في السنة قاطع، تثبت به معنى الفتنة، والصواب في نظري كما يرى الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ أنه لا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عني بذلك منه (١٧٢) .

أعود بعد هذا البيان لأقول: إذا كانت الآية الكريمة قد بينت أن المشركين حاولوا أن يفتنوا رسول الله ﷺ عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله ـ وهو المعنى العام للآية ـ أقول: إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ وهو قائد المؤمنين، ورسول رب العالمين، فكيف بمن هو دونه من سائر البشر؟ إن الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ يواجهون من أعداء الملة والدين في كل مكان حملة مسعورة لصدهم عن كتاب ربهم، وإبعادهم عن هذا المنبع الأصيل الذي يستقون منه كل ما يحتاجونه في أمور دينهم ودنياهم.

إن هذه الحملة هي ديدن أولئك الطغاة والمتجبرين، ومن نحا نحوهم من أذنابهم المنتشرين في كل مكان مع الدعاة المخلصين والعلماء الربانيين.

وإن المتأمل في أعمال أولئك الطغاة يجد أنها محاولات مدروسة مخططة، إذ هم لا يحاولون صرفهم عن كتاب ربهم ودعوتهم بالكلية، إنما يحاولون جلبهم إلى صفهم ـ ولو قليلاً ـ ليرضوا بالحلول الوسط بعد ذلك.

وإن من حملة الدعوة من يفتن بمثل هؤلاء عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً يسيراً، إذ إن أصحاب السلطان ـ كما قلت ـ لا يطلبون إليه أن يترك كتاب ربه ودعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها.

إن على دعاة الإسلام أن ينتبهوا لهذه المكيدة من أعداء الدين، ويقفوا أمامها بكل قوة، فإن هم فعلوا ذلك نجوا، وإن هم لم يفعلوا فقد فقدوا هيبتهم، وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها. وتلك لعمر الله المهلكة السريعة، والهزيمة التي تدب في أعماق السريرة، وإن الهزيمة إذا دبت في الأعماق، وتغلغلت فلن تنقلب الهزيمة نصراً أبداً. (١٧٣)

وبعد هذا البيان المهم أعود مرة أخرى إلى آية الإسراء، فأقول: إن هذه الآية العظيمة قد اشتملت على فوائد عظيمة، ومواعظ بليغة، ولعلي أوجزها في الأمور التالية:

١. الآية دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله ـ تعالى ـ إياه، وأنه لا يزال متملقاً لربه أن يثبته على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق قال الله ـ تعالى ـ له: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً} فكيف بغيره؟!

٢. تذكير الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ منته عليه، وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

٣. إنه على الرغم من علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله فإن إثمه يعظم، وجرمه يتضاعف إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر رسوله ﷺ لو فعل ـ وحاشاه من ذلك ـ بقوله: {إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} (١٧٤) .

التحذير من الفتنة

إذا كان القرآن الكريم قد أخبرنا بمحاولة المشركين فتنة رسول الله ﷺ عن القرآن، فإنه لم يتركه دون تقديم النصائح والتوجيهات التي يتمسك بها لتكون زاداً له، ولأمته من بعده، فلا تؤثر فيه وفيهم مؤامرات الأعداء الحاقدة، ومخططاتهم الفاجرة.

ها هو القرآن يحذر النبي الكريم ﷺ فيقول سبحانه كما في سورة المائدة في معرض الحديث عن كيفية معاملته ﷺ لليهود: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (١٧٥) .

إن الله ـ عز وجل ـ قد نهى في آية متقدمة على هذه الآية عن ترك شريعة الله ـ تعالى ـ كلها إلى أهوائهم: {فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} (١٧٦) ، وإن التحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته، إذ هي فتنة يجب أن تحذر، والأمر في هذا الحال لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً، أو أن يكون اتباعاً للهوى، وفتنة يحذر الله منها، ويبين ـ جل وعلا ـ أن أولئك اليهود الذين نزلت فيهم الآية (١٧٧) ، إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة فلا عليك يارسول الله منهم، ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته. ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك، أو يحولك عن موقفك (١٧٨) .

وها هي آية أخرى تحذر النبي ﷺ من أن يصده الكفار عن آيات ربه بعد إذ أنزلت إليه: {ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك} (١٧٩) .

وإن هذا التحذير لدليل على أن طريق الكفار دائماً أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل. وإن طريق المؤمنين أن يمضوا في طريقهم لا يلويهم عنها المعوقون، ولا يصدهم عنها أعداؤهم، وبين أيديهم آيات الله ـ تعالى ـ وهم عليها مؤتمنون.

ولقد كان التحذير أبلغ وأعمق حين بين القرآن جزاء رسول الله ﷺ فيما لو فتن بالكفار، واتبع آراءهم ـ وحاشاه من ذلك ـ يقول سبحانه: {إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} (١٨٠)، وقال جل وعلا: {ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين} (١٨١) .

أقول: وإذا كان هذا الخطاب وما قبله مع رسول الله ﷺ فإن على حماة الإسلام من العلماء المخلصين، والدعاة المصلحين أن يجعلوا من خطاب الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ خطاباً لهم، يوجههم، ويرشدهم إلى التنبه إلى تلك المخططات الرهيبة، والمؤامرات الحاقدة التي يقود زمامها الكفار من يهود ونصارى، وإن لهم ـ كما هو الحال في وقتنا الحاضر ـ طرقاً مختلفة، وأساليب شتى، ولكن المؤسف المخزي أن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام لا يلقي لتوجيهات القرآن وتحذيراته سمعاً أو انتباهاً {إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} (١٨٢) . ولا أدل على فتن اليهود أناساً من مدعي الإسلام عن القرآن وتوجيهاته من ذلك الاستسلام لليهود حين خرجت برقات السلام الذليل تعلن للدنيا، وتملأ الكون هتافاً أن أهلاً (بالعصر الإسرائيلي) وأدواته، وأن عاش الذئب الصهيوني ما دام أزلام القضية قد نجحوا في ذلك الاتفاق الذليل، الذي ستتم بموجبه جز الرقاب، برعاية أعداء الله الكافرين.

يحدث هذا كله في الوقت الذي يسقط فيه كل يوم على الأرض المقدسة عشرات القتلى والجرحى من أبناء فلسطين المسلمة، كل ذلك لأن

اليهود قد فتنوا رجالاً ممن يحسبون على المسلمين، وصدوهم عن القرآن الذي يستشهدون به في المحافل الدولية، والمؤتمرات العالمية، موهمين السذج من الناس أنهم يعملون بالقرآن، وكذبوا لعمر الله، فإنهم لو خضعوا صادقين لتحذيرات القرآن لما أقسموا بأن يمضوا إلى نهاية الطريق الموحش، حتى أنبتوا لنا غابة من هتافة التهريج، ومروجي التطبيع الذين خلت لهم الساحة، فأطلقوا العنان لألسنتهم الجبانة وأقلامهم المأجورة، وضمائرهم التي طالما تقلبت في ولاءاتها في سوق النخاسة!

إن هذه الحادثة المخزية قد أقضت مضاجع الغيورين من أبناء هذا الدين، فصاحوا بأعلى أصواتهم أنه لا يجوز بيع شبر واحد من أرض المسلمين، ولكن – للأسف – لم يكن هنالك مستجيبون؛ لأنهم غارقون في مستنقع الذل، همهم الوحيد: إرواء النزوات، وإشباع الشهوات، حتى تحقق بذلك ما حذر الله – تعالى – منه بقوله: {واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (١٨٣) .

أو لم تنزل هذه الآية في اليهود؟!

لقد نسي كثير من الأمة هذا كله، فكان نتيجة ذلك أن حل بالأمة الوبال والخسران، ومارس اليهود بذلك على المسلمين جريمة الاستغفال والاستذلال، تلك الجريمة التي قادتها مجموعات وقوى معينة تسعى إلى تمكين الاختراق الصهيوني من عمقنا الجغرافي والشعبي، وبدا واضحاً أن هذه القوى التي تطبعت تريد أن ترى سواد الأمة قد تطبع، فإلى الله المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

إن هذه اللعبة ليست هي الوحيدة من نوعها، فهناك مؤامرات أخر لا تقل أهمية عن آنفة الذكر، حيث لا زالت الصحوة الإسلامية تواجه أنواعاً من مكائد أعداء الدين، للصد عن دين الله القويم، وكتابه المبين، وصراطه المستقيم، ولهذا كان الواجب على الدعاة والمصلحين من أبناء هذه الصحوة

أن يقفوا صامدين ضد تلك المؤامرات، ويحذروا المسلمين منها بإعلامهم أن هؤلاء الأعداء ما أرادوا بمؤامراتهم تلك إلا أن يشغلوا الأمة الإسلامية عن مهمتها في الدعوة، ومهمتها الكبرى في تربية الجيل المؤمن المجاهد الواعي، الذي هو الخطر الحقيقي الذي يخشونه ويحذرونه (١٨٤) .

ولا بد للأمة المسلمة أن تستيقظ من رقدتها، وتنهض من سباتها، فتتخذ من كتاب ربها نبراساً تهتدي بنوره، وتستضيء، وإن لها في رسول الله ﷺ قدوة حسنة، ومثلاً أعلى، فقد حاول أعداؤه فتنته عن دينه ودعوته بشتى الوسائل والطرق، ولكنه لما كان معتصماً بكتاب ربه – تعالى – فقد ثبته ربه، وكان هذا التثبيت مانعاً له – عليه الصلاة والسلام – من الركون إليهم. وأكرمه الله – عز وجل – عندما تولى الدفاع عنه في كتابه الكريم، حيث كانت الآيات تنزل عليه تباعاً، "فما من شبهة أثارها أعداء الله – تعالى – إلا فندها، وما من تهمة ألصقوها به إلا دفعها، وما من مؤامرة دبروها إلا كشفها، وما من أسئلة تعجيزية إلا دحضها، وما من مكيدة حبكوها لقتله إلا أحبطها" (١٨٥) . أو لم نسمع قول الله – عز وجل –: {ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً} (١٨٦) .

ففي هذه الآية بيان بعصمة النبي ﷺ من الانسياق وراء المتآمرين المبيتين، حيث أطلعه – سبحانه – على مؤامراتهم التي يستخفون بها من الناس، ولا يستخفون بها من الله، وهو معهم، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول، وكان – سبحانه – يتولاه بفضله ورحمته في كل مرة، وإن ذلك لهو الفضل الكبير الذي يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم (١٨٧) .

ولنعلم جميعاً أن هؤلاء الكفار ما حرصوا على محاولة إبطال الآيات إلا لما يعلمونه من تأثيرها على القلوب: {والذين يسعون في آياتنا

معاجزين} (١٨٨) ، {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون} (١٨٩) .

هكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تهفو إلى هذا القرآن العظيم فتغلبهم، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يهدّد زعامتهم لو اطلع عليهم الناس وهم مأخوذون شبه مسحورين.

وإن في القرآن من التأثير العظيم لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار، وأن يصد عنه تدفق التيار. وإن فيه من مشاهد القيامة ومن القصص ومن مشاهد الكون الناطقة، ومن مصادر الغابرين، ومن قوة التشخيص والتمثيل لما يهز القلوب هزاً لا تملك معه قراراً (١٩٠) .

المبحث التاسع : الاعتراض على النسخ

النسخ في القرآن الكريم هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي (١٩١) ، وهذا مما اعترض عليه المشركون ووقفوا ضده، وهو يمثل موقفهم من القرآن يقول – سبحانه –: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون} (١٩٢) .

يقول ابن جرير: "يقول – تعالى ذكره –: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم أخرى والله أعلم بما ينزل، يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه بما يبدل ويغير من أحكامه، قالوا إنما أنت مفتر، يقول: قال المشركون بالله المكذبون رسوله لرسوله ﷺ : إنما أنت يا محمد مفتر أي مكذب تخرص بتقول الباطل على الله، يقول الله – تعالى – بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر، جُهال بأن الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه لا يعلمون حقيقة صحته. (١٩٣)

وفي قوله – سبحانه – {والله أعلم بما ينزل} عدة فوائد:

١. الجواب على سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل، وما فائدته؟

٢. أن الذي بُدل وأتي بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

٣. أن مصدر الأمرين عن علمه - تبارك وتعالى - وأن كلاً منهما منزل، فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني (١٩٤) .

وهذه الآية الكريمة من أدلة النسخ السمعية، ووجه الدلالة من الآية أن التبديل يتألف من رفع الأصل وإثبات البدل، وذلك هو النسخ سواء كان المرفوع تلاوة أو حكماً (١٩٥) .

* وقد أنكرت اليهود وطائفة من الصوفيين وغيرهم النسخ في القرآن لأنه يستلزم البَداء، وهذا باطل جملة وتفصيلاً، لأن النسخ غير البداء، وبيان ذلك أن يقال: إن الله - تعالى - عالم بما فرض وبرفع ذلك الفرض وإزالة حكمه، وانقضاء زمن تلك العبادة، ووقت الفرض الناسخ للفرض الأول، فهو تعالى علام الغيوب، ليس علم شيء عنه بمحجوب، يعلم - سبحانه - عواقب الأمور، وكل شيء عنده في كتاب مسطور كما قال - سبحانه - {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير} (١٩٦) ، {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} (١٩٧) ، {الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار} (١٩٨) .

وهذا كله بخلاف البداء فإنه من أوصاف أفعال المخلوقين الذين لا يعلمون عواقب الأمور كقول القائل: أفعل كذا ثم يظهر له بعد الأمر به والعزم عليه خلافه، ويظهر له أن تركه أولى من فعله، وهذا مستحيل على الله - تعالى - لما يترتب عليه من سبق الجهل وحدوث العلم، والجهل والحدوث عليه محالان، لأن النظر الصحيح في هذا العالم دلنا على أن خالقه

ومدبره متصف أزلاً وأبداً بالعلم الواسع المطلق، المحيط بكل ما كان وما سيكون، وما هو كائن كما تقدم ذلك آنفاً، ولو تأمل مَنْ أنكر النسخ في القرآن ما ذُكر من الفرق بين النسخ والبداء لرجع عن معتقده الفاسد (١٩٩)، نعوذ بالله – تعالى – من الضلالة بعد الهدى، ونسأله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

◆ ◆ ◆

الحواشي والتعليقات

(١) البقرة (٢٨٥).

(٢) "جامع البيان" (١٥١/٣

(٣) "مستدرك الحاكم" (٣١٥/٢) وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: منقطع.

(٤) قال في الدر المنثور (١٣٣/٢) أخرجه ابن جرير وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم.

(٥) "أنوار التنزيل" (٥٨٥/١).

(٦) الأنعام (٩٢).

(٧) انظر "تفسير القرآن العظيم" (١٥٨/٢) و"أنوار التنزيل" (٤٣٠/٢).

(٨) انظر "جامع البيان" (٢٧١/٧).

(٩) البقرة (٢ـ ٤).

(١٠) البقرة (١٣٦).

(١١) البقرة (٢٨٥).

(١٢) الكهف (١).

(١٣) الفرقان (١).

(١٤) مجموع الفتاوى (٨/١٢).

(١٥) انظر "جامع البيان" (١٨١/١)، و"تفسير القرآن العظيم" (٣٤٥/١)، و"فتح الباري" (٢١١/٨)، و"الموافقات في أصول الشريعة" للشاطبي (٦٨/٣).

(١٦) المؤمنون (١٠١).

(١٧) الطور (٢٥).

(١٨) انظر "مناهل العرفان" للزرقاني (١٩٨/٢).

(١٩) النساء (١٦٢).

(٢٠) (٣٩٢/١٧، ٣٩٣).

(٢١) "مجموع الفتاوى" (٣٩٢/١٧، ٣٩٣).

(٢٢) "الشريعة" للآجري ص٧٣.

(٢٣) ذكره شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٣٩٤/١٧) وقال: رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني.

(٢٤) أخرجه البخاري (٩٧٤/٢) برقم (٢٥٨١).

(٢٥) الأدغام (٨٢).

(٢٦) أخرجه البخاري (١٢٢٦/٣) برقم (٣١٨١)، ومسلم (١١٤/١) برقم (١٢٤).

(٢٧) البقرة (٢٨٤).

(٢٨) أخرجه مسلم (١١٥/١) برقم (١٢٥).

(٢٩) الانشقاق (٨).

(٣٠) أخرجه البخاري (٥١/١) برقم (١٠٣).

(٣١) أخرجه الطبري (٦٥/١).

(٣٢) أخرجه بنحوه الحاكم في مستدركه (٧٤٣/١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣٣) انظر "مجموع الفتاوى" (٣٩٥/١٧ـ ٣٩٩).

(٣٤) الحديد (١٦).

(٣٥) الإسراء (١٠٧ ـ ١٠٩).

(٣٦) (١٨٢/١٥).

(٣٧) "انظر الظلال" (٢٢٥٤/٤).

(٣٨) مريم (٨٥).

(٣٩) "جامع البيان" (٩٧/١٦).

(٤٠) الزمر (٢٣).

(٤١) "تفسير القرآن العظيم" (٥٢/٤).

(٤٢) الفرقان (٧٣).

(٤٣) "جامع البيان" (٥١/١٩).

(٤٤) انظر "تفسير القرآن العظيم" (٣٣٠/٣).

(٤٥) انظر "إرشاد العقل السليم" (٢٣١/٦).

(٤٦) هو عبدالله بن شداد بن الهاد الليثي الفقيه، أبو الوليد المدني ثم الكوفي، روى عن أبيه ومعاذ بن جبل وجماعة، وتوفي في قتاله مع ابن الأشعث سنة اثنتين وثمانين انظر: "سير أعلام النبلاء" (٤٨٩/٣).

(٤٧) "أحكام القرآن" لابن العربي "٣٧/٢).

(٤٨) انظر "الإتقان" للسيوطي (٢٨٥/١).

(٤٩) "جامع البيان" (١٧٨/٩).

(٥٠) الأنفال (٢).

(٥١) التوبة (١٢٤).

(٥٢) النحل (٧٩) والنمل (٨٦).

(٥٣) الحجر (٧٧).

(٥٤) الظلال.

(٥٥) "شرح العقيدة الطحاوية" (٣٣٤/١).

(٥٦) "مجموع الفتاوى" (١٥١/٣).

(٥٧) المرجع السابق (٢٢٨/٧).

(٥٨) التوبة (١٢٤).

(٥٩) "جامع البيان" (٧٢/١١).

(٦٠) النحل (٣٠).

(٦١) انظر "تفسير التحرير والتنوير" (٣٧٠/٧).

(٦٢) المرجع السابق، ولم أقف على مكانه في كتاب الرازي آنف الذكر.

(٦٣) النحل (٢٤).

(٦٤) انظر "الجامع لأحكام القرآن" (١٠٠/١٠)، و"البرهان في علوم القرآن" (٢٠٧/٣).

(٦٥) ص (٢٩).

(٦٦) اقتضاء العلم العمل ص٧٠.

(٦٧) المرجع السابق.

(٦٨) أخرجه بهذا اللفظ الخطيب البغدادي في "اقتضاء العلم العمل" ص٦٩، ٧٠.

(٦٩) الأنفال (٤١).

(٧٠) الأنفال (١).

(٧١) الظلال (١٥٢٠/٣).

(٧٢) النساء (١٠٥).

(٧٣) المائدة (٤٩ ـ ٥٠).

(٧٤) ص (٢٦).

(٧٥) الأنعام (٥٠).

(٧٦) المائدة (٤٤).

(٧٧) المائدة (٤٥).

(٧٨) المائدة (٤٧).

(٧٩) البخاري (٤٨) ومسلم (٦٤).

(٨٠) انظر "فتنة التكفير" إعداد علي بن حسين أبي لوز ص٤٦.

(٨١) الحج (٧٢).

(٨٢) البقرة (٢٠٦).

(٨٣) أسد الغابة (٢٨١/٣، ٢٨٢).

(٨٤) الظلال (٢٤٤٣/٤)، وانظر "جامع البيان" (٢٠١/١٧).

(٨٥) ص (٦ ـ ٨).

(٨٦) انظر "جامع البيان" (١٢٨/٢٣) و"روح المعاني" (١٦٨/٢٣).

(٨٧) الحج (٥٥).

(٨٨) الحج (٥٤).

(٨٩) "جامع البيان" (١٢٨/٢٣).

(٩٠) الحج (٥٦، ٥٧).

(٩١) البقرة (٢).

(٩٢) انظر "أنوار التنزيل" (٩٦/١).

(٩٣) البقرة (٢٣ـ ٢٤).

(٩٤) الظلال (٤٢/١، ٤٣).

(٩٥) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٧).

(٩٦) المدثر (١١ـ ٣٠).

(٩٧) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٣٠٩).

(٩٨) انظر "الظلال" (٣٧٥٦/٦، ٣٧٥٧).

(٩٩) سبأ (٤٣).

(١٠٠) الصافات (١٥).

(١٠١) النمل (١٢ـ ١٤).

(١٠٢) القصص (٣٦).

(١٠٣) "تفسير القرآن العظيم" (١٢٨/٢).

(١٠٤) القلم (١٠ـ ١٥).

(١٠٥) "معالم التنزيل" (٣٧٨/٤).

(١٠٦) المطففين (١٠ـ ١٤).

(١٠٧) انظر "أنوار التنزيل" (٥٧٨/٢).

(١٠٨) (٤٣٤/٥).

(١٠٩) صحيح سنن الترمذي.

(١١٠) المطففين (٦).

(١١١) النمل (٦٧ـ ٦٨).

(١١٢) "جامع البيان" (١٠/١٠).

(١١٣) المؤمنون (٨١ـ ٨٣).

(١١٤) الأحقاف (١٦ـ ١٧).

(١١٥) الأنفال (٣١).

(١١٦) "إرشاد العقل السليم" (١٩/٤).

(١١٧) الأنعام (٢٥).

(١١٨) الفرقان (٥).

(١١٩) الفرقان (٥).

(١٢٠) انظر "أنوار التنزيل" (٢٠٦/٤).

(١٢١) النحل (٢٢ـ ٢٤).

(١٢٢) النحل (٢٤).

(١٢٣) النحل (٢٥).

(١٢٤) النجم (٥٩ـ ٦٢).

(١٢٥) "جامع البيان" (٨٢/٢٧) وانظر "إرشاد العقل السليم" (١٩٦/٨).

(١٢٦) الأنبياء (٣/٢).

(١٢٧) "أنوار التنزيل" (٨٢/٤) و"روح المعاني) (٧/١٧).

(١٢٨) يونس (١٥ـ ١٦).

(١٢٩) انظر " تفسير القرآن العظيم". (٤١١/٢) و"جـامع البيـان" (٩٤/١١). و"أنـوار التنزيـل" (١٨٩/٣).

(١٣٠) مريم (٧٣).

(١٣١) مريم (٧٤).

(١٣٢) أنوار التنزيل (٣٨/٢).

(١٣٣) الإسراء (٨٩ـ ٩٣).

(١٣٤) الظلال (٢٢٥٠/٤).

(١٣٥) القصص (٤٨ـ ٤٩).

(١٣٦) انظر "تفسير القرآن العظيم" (٣٩٣/٣).

(١٣٧) القصص (٥٠).

(١٣٨) الأنعام (٥).

(١٣٩) ق (٥).

(١٤٠) الأنفال (٣٢).

(١٤١) ص ٨٠، ٨١ "التبيان في أقسام القرآن" ص٨٠، ٨١.

(١٤٢) الجاثية (٦).

(١٤٣) محمد (٢٢).

(١٤٤) ق (٥).

(١٤٥) النحل (١٠٣).
(١٤٦) النحل (١٠٢).
(١٤٧) الأنعام (١٠٥).
(١٤٨) الدخان (١٤).
(١٤٩) الفرقان (٤).
(١٥٠) الشعراء (٢١٠).
(١٥١) الجن (٨).
(١٥٢) انظر "روح المعاني" (١٥٤/١٩).
(١٥٣) الزمر (٣٢).
(١٥٤) "تفسير القرآن العظيم" (٥٤/٤).
(١٥٥) الأنعام (٢٧ـ ٢٨).
(١٥٦) الواقعة (٩٢ـ ٩٤).
(١٥٧) الروم (١٦).
(١٥٨) غافر (٦٩ ـ ٧٢).
(١٥٩) المائدة (١٠٤).
(١٦٠) لقمان (٢١).
(١٦١) الفرقان (٣٠).
(١٦٢) الفوائد ٨٢.
(١٦٣) المرجع السابق.
(١٦٤) البقرة (١٣).
(١٦٥) "مدارج السالكين" (٣٤٨/١، ٣٥٠).
(١٦٦) انظر "الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن" للمؤلف.
(١٦٧) راجع هذه الأقوال مجتمعة في كتاب: "قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله" للأستاذ جلال العالم ص٥٩، ٦٠، ٦١.
(١٦٨) الإسراء (٧٣ـ ٧٤).
(١٦٩) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن سعيد بن جبير (١١٨/٨) برقم (٢٢٥٣٦).
(١٧٠) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (٣٥٢/٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٤٩/٩).
(١٧١) أخرجه ابن جرير (١١٩/٨) برقم (٢٢٥٣٨). وهو في زاد المسير (٥٠/٥) وتفسير القرطبي (١٤٩/٥).
(١٧٢) تفسير الطبري (١٢٠/٨).

(١٧٣) انظر الظلال (٤/ ٢٢٤٥).

(١٧٤) انظر هذه الفوائد في تفسير الشيخ السعدي (٤/٣٠٥ـ ٣٠٦).

(١٧٥) المائدة (٤٩).

(١٧٦) المائدة (٤٨).

(١٧٧) راجع سبب النزول في تفسير الطبري (٤/٦١٤) برقم (١٢٥٦).

(١٧٨) الظلال (٢/٩٠٤).

(١٧٩) القصص (٨٧).

(١٨٠) الإسراء (٧٥)، والآية جواب شرط مقدر، أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركنة لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وهما عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. انظر تفسير أبي السعود (١٨٨/٥).

(١٨١) يونس (٩٥).

(١٨٢) الفرقان (٤٤).

(١٨٣) المائدة (٤٩).

(١٨٤) انظر "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" تأليف الأستاذ الداعية محمد قطب ص٢٤٥، ٢٤٨.

(١٨٥) "منهج القرآن في تثبيت الرسول ﷺ " رسالة ماجستير تقدم بها عبدالرحمن هوساوي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٢هـ ص١٢٠، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة.

(١٨٦) النساء (١١٣).

(١٨٧) انظر الظلال (٢/٧٥٦) وتفسير السعدي (٢/١٦١).

(١٨٨) سبأ (٣٨).

(١٨٩) فصلت (٢٦).

(١٩٠) انظر الظلال (٥/٣١٢٠).

(١٩١) "مناهل العرفان" للزرقاني (٢/١٢٧).

(١٩٢) النحل (١٠١).

(١٩٣) "جامع البيان" (١٤/١٧٦) وانظر "الناسخ والمنسوخ للمقري" (١/٢٩).

(١٩٤) "التبيان في أقسام القرآن" ص١٤٠.

(١٩٥) "مناهل العرفان" ١٣٩/٢.

(١٩٦) التغابن (١١).

(١٩٧) الأنعام (٥٩).

(١٩٨) الرعد (٨ ـ ١٠).

(١٩٩) انظر "الناسخ والمنسوخ" للكرمي (١/٤٣، ٤٤) و"مناهل العرفان" (٢/١٣٠).

المراجـع

* **الإتقان** في **علوم القرآن، السيوطي.**

* **أحكام القرآن، ابن العربي.**

* **إرشاد العقل السليم، أبو السعود.**

* **أنوار التنزيل، البيضاوي.**

* **البرهان** في **علوم القرآن، الزركشي.**

* **التبيان** في **أقسام القرآن، ابن القيم.**

* **تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور.**

* **تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.**

* **جامع البيان، ابن جرير الطبري.**

* **الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.**

* **الدر المنثور** في **التفسير بالمأثور، السيوطي.**

* **روح المعاني، الألوسي.**

* **رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب.**

* **الشريعة، الآجري.**

* **فتح الباري، ابن حجر.**

* **الفوائد، ابن القيم.**

* في **ظلال القرآن، سيد قطب.**

* **قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم.**

* **مجموع الفتاوى، ابن تيمية.**

* **المستدرك، الحاكم النيسابوري.**

* **معالم التنزيل، البغوي.**

* **مناهل العرفان** في **علوم القرآن، الزرقاني.**

* **الموافقات** في **أصول الشريعة، الشاطبي.**

* **الناسخ والمنسوخ، الكرمي.**

* **الناسخ والمنسوخ، المقري.**